جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ديالى / كلية العلوم الإسلامية

قسم علوم القرآن

مـــــــادة عـلـوم الـقـرآن

المرحلــة الــثــانــيــة: الكورس الأول

د: منشد فالح وادي

م.م عفراء حكمت حميد

١٤٤٦هـ

٢٠٢٥ م

علوم القرآن الكريم

التعريف بعلوم القران:
تعني عبارة (علوم القرآن) المباحث والدراسات التي كتبت حول القرآن الكريم، وهي تتناول أربعة موضوعات أساسية، الأول: مصدر القرآن أو كيفية إنزاله وتلقي النبي صلى الله عليه وسلم له، والثاني: كتابة القرآن وجمعه ونسخه في المصاحف، والثالث: تلاوة القرآن وقراءاته، والرابع: تفسير القرآن وكيفية فهم آياته. ويتألف كل موضوع من هذه الموضوعات من عدد من المباحث التي يتكون من مجموعها ما يعرف بعلوم القرآن، ويتصل بعلوم القرآن أيضا المباحث المتعلقة بفضائل القرآن، والدراسات التي تبحث في وجوه إعجازه.
الفرق بين علوم القران وتاريخ القران:
القرآن الكريم : هو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيّه محمّد عليه الصّلاة والسّلام ليكون آخر الكتب السّماويّة، فالقرآن الكريم هو كلام الله تعالى الذي أنزل عن طريق الوحي على النّبي عليه الصّلاة والسّلام، وهو الكتاب المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المعجز بآياته وسوره، وقد بدأ بسورة الفاتحة وختوم بسورة النّاس، وقد شرّف الله تعالى هذه الأمّة بهذا الكتاب العزيز الذي تكفّل الله تعالى بحفظه فلا تستطيع الإنس والجنّ ولو اجتمعت على أن تحرّف منه سورة أو آية.

فأما علوم القرآن الكريم : فقد عني العلماء المسلمون على مرّ التّاريخ بدراسة آيات القرآن الكريم وسوره، حتّى نشأت علوم القرآن الكريم التي تضمّنت فروعاً كثيرة منها، النّاسخ، والمنسوخ، والمحكم، والمتشابه في القرآن الكريم، وعلم تفسير آيات القرآن الكريم، وأسباب النزول، والإعجاز البياني والعلمي في آيات القرآن.

وأما تاريخ القرآن فان «القرآن الكريم» منذ نزوله على نبي الإسلام قد لاقي — ولا يزال — عنايةً بالغةً من قِبَل المسلمين والمستشرقين على حدٍ سواء، فأُلِّفَت الكتب العديدة بغرض البحث في ثنايا القرآن وعلومه. والكتاب الذي بين أيدينا لمؤلّفه «أبي عبد الله الزنجاني» هو أحد هذه الكتب التي اهتمت بدراسة القرآن من منظورٍ تاريخي؛ حيث يُعنى بتتبُّع المراحل المختلفة التي مرَّ بها القرآن؛ بدايةً من نزول الوحي به وكتابته وجَمْعه، وأخيرًا ترجمته إلى مختلِف اللغات، كذلك يُسلِّط الضوءَ على عددٍ من مواطن الخلاف؛ لا سيما ترتيب السور في مصاحف الصحابة والتابعين، ورأي بعض علماء الغرب في تفسير تاريخ سور القرآن، كذلك تفسير وفَهْم معاني الحروف الواردة في بدايات بعض السور.

لمحة تاريخية عن علوم القران وتدوينها:

ترتبط نشأة (علوم القرآن) ببدء نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتلاوته على الناس، وأمره أصحابه بكتابته. وتطورت تلك النشأة مع تطور الحياة العلمية والثقافية للأمة- وانتقلت من مرحلة الملاحظات المتفرقة إلى مرحلة البحث المنهجي المدوّن. ويمكن أن ندرس نشأة (علوم القرآن) وتطورها من خلال المراحل الأربع الآتية:

المرحلة الأولى: علوم القرآن قبل عصر تدوين العلوم:

يمكن للباحث أن يجد بدايات علوم القرآن في عصر النبوة متمثلة بالملاحظات والأحاديث التي تلقّاها الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتصلة بالقرآن

الكريم، فمن سؤال الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم عن كيفية تلقيه القرآن بدأت المباحث المتعلقة بنزول القرآن، ومن قراءته صلى الله عليه وسلم القرآن على أصحابه وحثّهم على تلاوته وحفظه نشأت المباحث الخاصة بالقراءات القرآنية، ومن أمره صلى الله عليه وسلم كتّاب الوحي بكتابة ما ينزل عليه من القرآن تأكدت سنّة كتابة القرآن وجمعه في الصحف، ونشأت من ذلك المباحث المتعلقة بكتابته ورسمه، ومن بيانه

صلى الله عليه وسلم لمعنى عدد من الآيات والكلمات القرآنية حين أشكل فهمها على بعض الصحابة نشأت المباحث المتعلقة بفهم القرآن وتفسيره.
وتجمعت تلك الملاحظات لدى علماء الصحابة، واختزنتها ذاكرتهم، ونقلوها إلى تلامذتهم من التابعين، لكنهم لم يدوّنوها تدوينا منظما، لأن العلوم لم تكن قد دوّنت في عصرهم، وكان القرآن الكريم أول كتاب مدوّن عرفته الأمة، وحرصوا في الجيل الأول ألّا يظهر بجانبه كتاب آخر، لكن الضرورة أملت على علماء الأمة من التابعين وتابعيهم تدوين العلوم، وكان نصيب علوم القرآن من جهودهم كبيرا.
المرحلة الثانية: علوم القرآن في عصر التدوين
يمكن القول إن تدوين علوم اللغة العربية وعلوم القرآن وغيرها قد بدأ في أواخر القرن الأول الهجري ومطلع القرن الثاني، وأن القرن الثاني لم ينقض إلا ومعظم العلوم قد دوّنت وظهرت فيها المؤلفات، ومن أوائل الكتب المؤلفة في علوم القرآن كتاب «التفسير» لعبد الله بن عباس (ت 68 هـ) الذي رواه تلميذه مجاهد بن جبر المكي (ت 104 هـ) ، ومنها كتاب في هجاء (رسم) المصاحف لعبد الله بن عامر اليحصبي الدمشقي (ت 118 هـ). وكتاب قراءة أبي عمرو بن العلاء (ت 154 هـ) ، ثم تتابع التأليف وكثر في علوم القرآن.
ويقدّم ابن النديم صورة واضحة في كتابه «الفهرست» عن حركة التأليف في علوم القرآن، حتى سنة 377 هـ وهي سنة تأليفه الكتاب، حيث ذكر أكثر من 250 كتابا في موضوعات متعددة من علوم القرآن، نشير إلى أهمها :
الكتب المؤلفة في تفسير القرآن: ذكر 14 كتابا.
الكتب المؤلفة في معاني القرآن ومشكله ومجازه: ذكر 25 كتابا.
الكتب المؤلفة في غريب القرآن: ذكر 14 كتابا.
الكتب المؤلفة في القراءات: ذكر 22 كتابا.
الكتب المؤلفة في الوقف والابتداء في القرآن: ذكر 12 كتابا.
الكتب المؤلفة في متشابه القرآن: ذكر 10 كتب.
الكتب المؤلفة في فضائل القرآن: ذكر 12 كتابا.
الكتب المؤلفة في عدد آي القرآن: ذكر 19 كتابا.
الكتب المؤلفة في ناسخ القرآن ومنسوخه: ذكر 18 كتابا.
الكتب المؤلفة في أحكام القرآن: ذكر 11 كتابا.
وتتميز هذه المرحلة بأن لكل علم من علوم القرآن كتبا خاصة به، فالكتاب الواحد لا يتناول إلا مباحث علم واحد، فلم تكن المؤلفات الجامعة قد ظهرت بعد.

المرحلة الثالثة: مرحلة المؤلفات الجامعة
خصص ابن النديم الفن الثالث من المقالة الأولى من كتابه الفهرست، لعلوم القرآن، وقال في مطلعه: «الفن الثالث: في نعت الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأسماء الكتب المصنفة في علومه، وأخبار القراء وأسماء رواتهم». وما فعله ابن النديم هنا يمثل بداية اتجاه جديد للتأليف في علوم القرآن يتمثل بجمع خلاصة لعلوم القرآن كافة في مكان واحد، بعد أن كانت كتب علوم القرآن يختص كل كتاب منها بمباحث علم واحد. وأشهر الكتب التي اتبعت هذا المنهج:
1 - كتاب فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن، تأليف ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المتوفى سنة 597 هـ).
2 - جمال القراء وكمال القراء، تأليف علم الدين السخاوي. (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد المتوفى سنة 643 هـ)
3 - المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة المقدسي. (أبو القاسم عبد الرحمن بن اسماعيل المتوفى سنة 665 هـ)
4 - البرهان في علوم القرآن، تأليف بدر الدين الزركشي. (محمد بن عبد الله المتوفى سنة 794 هـ)
5 - الإتقان في علوم القرآن، تأليف جلال الدين السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر المتوفى سنة 911 هـ)
وكتاب «الإتقان» هو أكبر كتاب في علوم القرآن، جمع فيه السيوطي خلاصة ثمانين مبحثا من مباحث علوم القرآن، استخلصها من المؤلفات السابقة له، وكان خاتمة للمؤلفات الجامعة في العصور المتقدمة.
المرحلة الرابعة: علوم القرآن في العصر الحديث:
عاد العلماء إلى التأليف في علوم القرآن في العصر الحديث، وتنوعت اتجاهات التأليف عندهم:
فمنهم من اتبع منهج المؤلفات الجامعة، مثل الشيخ طاهر الجزائري (ت 1920 م) في كتابه «التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن»، الذي اختصر فيه بعض مباحث (الاتقان) للسيوطي. والشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (ت 1948 م) في كتابه «مناهل العرفان في علوم القرآن». ونحا هذا المنحى الدكتور صبحي الصالح في كتابه «مباحث في علوم القرآن» وغير هؤلاء كثير.
ومنهم من ألّف في علم واحد من علوم القرآن أو قضية من قضايا تأريخ القرآن، مثل كتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي، وكتاب «النبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز، وكتاب «النسخ في القرآن» للدكتور مصطفى

زيد، وكتاب «الإعجاز البياني للقرآن» للدكتورة عائشة عبد الرحمن، وكتاب «التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن» للأستاذ حنفي أحمد، وغيرها كثير أيضا.

وكان للمستشرقين دور في الدراسات الحديثة عن القرآن وعلومه، لكن أكثر تلك الدراسات كانت تنطلق من نظرة يشوبها التعصب ، وأشهر ما كتبوه كتاب «تاريخ القرآن» للمستشرق الألماني تيودور نولدكه، الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1860 م، والذي قال عنه المستشرق آثر جفري: «وهو الآن أساس كل بحث في علوم القرآن في أوربا» ، وكتاب «مذاهب التفسير الإسلامي» للمستشرق المجري الأصل جولد تسهير (ت 1920 م) ، وكتاب «القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره» للمستشرق الفرنسي بلاشير .

ومن الكتب التي كتبها باحث غربي واتسمت بالموضوعية إلى حد كبير ، كتاب «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» للكاتب الفرنسي موريس بوكاي ، الذي أراد في هذا الكتاب (اختبار الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية الحديثة) ، والذي ختمه بقوله: «وبالنظر إلى حال المعارف في عصر محمد، لا نستطيع أن نفهم بأن كثيرا من الأخبار القرآنية التي لها سمة علمية يمكن أن تكون عمل إنسان، ولذلك فإن المشروع ليس بأن يعتبر القرآن تعبيرا لوحي فقط، بل بأن يعطى مركزا ممتازا لما يتمتع به من الأصالة الفريدة ولوجود أخبار علمية لديه ظهرت كتحد للتفسير الإنساني»

إن التأليف في علوم القرآن في اتجاهيه العام والخاص لم ينقطع منذ بدئه إلى زماننا، وهو يعكس مقدار عناية الأمة بالقرآن الكريم، والحاجة الدائمة إلى مؤلفات توضح تأريخ النص القرآني، وتكشف عن وجوه إعجازه، وتبين ما يتضمنه من الحكمة ومعالم الهداية التي تتطلع إليها البشرية أفرادا وجماعات في جميع العصور.

علاقة علوم القران بالعلوم الاسلامية:

علاقة علوم القران بالتفسير:

علم التفسير جزء من علوم القرآن، فكل معلومة من التفسير هي من علوم القرآن، وليس كل معلومة من علوم القرآن هي من التفسير.

علاقة علوم القران بالعقائد:

بين أهل هذا العلم - علماء العقيدة - لها معنيان: معنى عام يشمَل كل عقيدة، ومعنى خاص يَشمل العقيدة الإسلامية فقط، فالعقيدة بالمعنى العام هي الإيمان واليقين الجازم الذي لا يتطرَّق إليه شكٌ لدى معتقده، سواء أكان هذا الاعتقاد حقًا أم باطلاً.

والعقيدة بالمعنى الخاص تَخصُّ العقيدة الإسلامية فقط.
والعقيدة الإسلامية هي الإيمان الجازم بربوبية الله - تعالى - وأُلوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخِر، والقدر خيره وشرِّه، وسائر ما ثَبَتَ من أمور الغيب، وأصول الدِّين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله - تعالى - في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله - صلى الله عليه وسلم.
والأمور العملية التي مِن قطعيات الدِّين؛ كالأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر، والجهاد، والحب في الله والبغض في الله، ونحو ذلك مما يَندرج في الواجبات، وفي العلاقات بين المسلمين؛ كحبِّ الصحابة - رضي الله عنهم - وحبِّ السلف الصالح، وحبِّ العلماء، وحبِّ الصالِحين، ونحو ذلك مما هو مُندرِج في أصول الاعتقاد وثوابته.
ويُمكن أن نقول: إن العقيدة الإسلامية هي كل خبر جاء عن الله أو رسوله يتضمَّن خبرًا غيبيًّا لا يتعلَّق به حكم شرعي عمَلي، فسائر ما ثبَت مِن أمور الغيب هو مِن العقيدة، والأخبار التي جاءت في كتاب الله وصحَّت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - هي مِن العقيدة، والثوابت العلمية أو العملية داخلة في العقيدة؛ كالتزام شرع الله - عز وجل - في الجملة، والتزام أصول الفضائل والأخلاق الحميدة ونفي ما يُضادُّ ذلك.
ويُمكن أن نقول: إن العقيدة الإسلامية هي عبارة عن مجموعة الأحكام الشرعية التي يجب على المسلم أن يؤمن بها إيمانًا جازمًا، وتكون عنده يقينًا لا يَشوبه شكٌّ، ولا يُخالِطه ريب، فإن كان فيها ريب أو شكٌّ، كانت ظنًّا لا عقيدة.
ويُمكِن تعريف العقيدة الإسلامية بتعريف مختصَر، فنقول: العقيدة هي التصديق الجازم بالعقائد الواردة في القرآن والسنَّة والعمل بمقتضاها، أو المسائل العِلمية التي صحَّ بها الخبر عن الله ورسوله، والتي يَجب أن يَنعقِد عليها قلب المسلم.
ومن هنا نعلم العلاقة بين علوم القران وعلم العقائد فالقران الكريم المصدر الاول للعقيدة ومعرفة القران ضرورة لفهم العقيدة.
علاقة علوم القران بأصول الفقه:
أصول الفقه مركب من لفظين مفردين بإضافة لفظ: «أصول» إلى لفظ: «الفقه»، ومعنى الأصول باعتباره مفردا هي: أدلة الفقه، وأصول الفقه بالمعنى الإضافي: «الأدلة الشرعية، التي يعتمد عليها علم الفقه، وتستمد منها أحكامه». و«أصول الفقه» بمعناه اللقبي، أي: المركب الإجمالي، بمعنى: العلم المسمى بـ: «أصول الفقه» هو: «العلم بالقواعد التي وضعت

للوصول إلى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية».وبعبارة أخرى: أصول الفقه هو علم يضع القواعد الأصولية لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلّتها الصحيحة. أو هو:«علم يدرس أدلة الفقه الإجمالية، وما يتوصل به إلى الأدلة، وطرق استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، والاجتهاد والاستدلال». فهو: «منهج الاستدلال الفقهي»، وموضوعه: أدلة الفقه الإجمالية،وما يتوصل به إلى الأدلة. ويبحث في كيفية الاستنباط، وقواعده وشروطه.

أو هو: «علم يبحث في أدلة الفقه الإجمالية وكيفية الاستفادة منها، وحال المستفيد (المجتهد)»، ويبين كيفية استنباط الحكم من دليله، كاستنباطه من صراحة نص الآية القرآنية، أو الحديث النبوي، أو من مفهومهما، أو من القياس عليهما، أو بغير ذلك، وعلم أصول الفقه يبحث في الأدلة بصفتها الإجمالية، وخصائص كل نوع منها وكيفية ارتباط أنواعها ببعض، والقواعد والشروط التي تبين للفقيه المسلك الذي يجب عليه أن يلتزمه في استخراج الأحكام من أدلتها.

كانت أصول الفقه معرفة حاضرة في أذهان فقهاء الصحابة والتابعين في الصدر الأول، حيث لم يكونوا بحاجة لعلم قواعد الاستدلال التي أخذت معظمها عنهم؛ لأنهم أصحاب ملكة لسانية، وخبرتهم في معرفة نقل الشرع وقرب العصر، وبعد انتهاء فترة الصدر الأول وظهور عصر تدوين العلوم احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل قوانين الاستنباط وقواعده لاستفادة الأحكام من الأدلة فكتبوها فنا قائما برأسه سموه أصول الفقه. قال ابن خلدون: «وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه، أملى فيه رسالته المشهورة تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها وكتب المتكلمون أيضا كذلك». وفي مصادر أخرى فقد قيل إن أول من صنف في علم أصول الفقه وضبط القواعد: أبو يوسف، ومحمد تلميذا أبي حنيفة، وقيل: بل أبو يوسف وحده، وقيل: بل هو أبو حنيفة النعمان حيث كتب كتاباً أسماه كتاب الرأي، ولكن لم يصل من ذلك شيء، والذي اشتهر قديما وحديثا: أن الشافعي أول من دون في علم أصول الفقه، وكتب فيه بصورة مستقلة في كتابه المشهور: «الرسالة» -وهو كتاب متداول مطبوع- وقد صرح بذلك جمع كابن خلكان وابن خلدون.

وأدلة الفقه الإجمالية: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وهذه الأربعة الأدلة هي الأصول الأساسية المتفق عليها عند جمهور الفقهاء، وما عداها

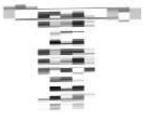

من الأدلة مختلف في تفاصيل الاستدلال بها، لا في إنكارها بالكلية، وتشمل: استصحاب الحال، والاستحسان والمصالح المرسلة، والعرف، وعمل أهل المدينة عند المالكية، وقول الصحابي.

نشأة أصول الفقه

يُعتَبر علم أصول الفقه من حيث التّأليف والتدوين من العلوم التي ظهرت في أواخر القرن الثاني الهجريّ، أما من حيث استنباط أحكام الفقه فقد بدأ في عصر كبار الصحابة رضوان الله عليهم، حيث إنّهم كانوا يستنبطون الأحكام الشرعيّة لتطبيقها على وقائع وأحداث جديدة من غير ضوابط، فقد كانوا على دراية تامّة باللغة العربيّة، وأسباب نزول القرآن، والناسخ والمنسوخ، إلى غير ذلك ممّا يخصّ أصول الفقه، بالإضافة إلى مُعايشتهم ومُشاهدتهم لأفعال النبي عليه الصّلاة والسّلام.

في عهد التابعين ومن بعدهم كَثُرت الحاجة إلى استنباط الأحكام بسبب كثرة الحوادث والمُستجدّات النّاتجة عن اتّساع البلاد الإسلاميّة، فدعت الحاجة إلى وضع قواعد مُحدّدة للسير عليها في استنباط الأحكام. غير أنّ علم أصول الفقه بقي علماً تطبيقيًّا غير مُترجم إلى قواعد ونظريات، حتى جاء الإمام الشافعيّ رحمه الله وجمع مسائله في كتابه الرسالة، بعد ذلك كثرت المُؤلّفات الأصوليّة وأصبح الاجتهاد والاستنباط من الأدلّة مُيسَّرا؛ لأنّ الأحكام أصبحت محصورةً ومعلومةً، وطرق الاستنباط أصبحت واضحةً ومُنضبطةً.

ومن هنا نجد العلاقة بين علوم القران وعلم اصول الفقه فالقران المصدر الاول للتشريع كما ان دراسة اصول الفقه تعين على فهم القران الكريم.

التفسير:

للعلماء عدة أقوال في تعريف تفسير القرآن، أوردها الإمام السيوطي في (الإتقان في علوم القرآن)، منها ما يأتي:

هو علم نزول الآيات وشؤونها، وقصصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها.

وقال أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط): التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك. فقولنا (علم): هو جنس يشمل سائر العلوم. وقولنا: (يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن) هذا هو علم القراءات. وقولنا: (ومدلولاتها) أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا

هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم. وقولنا: (وأحكامها الإفرادية والتركيبية) هذا يشمل علم التصريف وعلم الإعراب وعلم البيان وعلم البديع. وقولنا: (ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب) يشمل ما دلالته بالحقيقة، وما دلالته بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئا، ويصد عن الحمل على الظاهر صاد، فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر وهو المجاز. وقولنا: (وتتمات لذلك) هو مثل معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما أبهم في القرآن، ونحو ذلك.

وقال بدر الدين الزركشي في (البرهان في علوم القرآن): هو علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

وقال الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في (مناهل العرفان في علوم القرآن): هو علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية.

وعرّفه الإمام محمد الطاهر بن عاشور في مقدمة تفسيره (التحرير والتنوير) فقال ما ملخصه: هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع. وموضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه وما يستنبط منه.

الاعجاز:

لقد أرسل الله تعالى الرسل -عليهم السلام- لهداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور وأمدهم بالمعجزات تأييداً لهم وتصديقاً لنبوتهم. ومعجزات الأنبياء الذين جاؤوا قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت جلها معجزات حسية ومادية، فقد كانت تأتي وفقاً لأوضاعهم وأقوامهم، وأعرافهم وما اشتهروا به، وينتهي وقوعها بانتهاء زمنهم، ولا تكون حجة إلا على من شاهدها أو وصلت إليه بالتواتر لذلك فقد كانت خاصة بزمان ومكان وقوم معينين.

أما القرآن الكريم فهو المعجزة الكبرى الخالدة الدالة على صدق نبوة النبي محمد وقد تجلى ذلك الإعجاز في صور متعددة منها: الإعجاز البياني، والإعجاز التاريخي، والإعجاز الغيبي، والإعجاز العلمي.

الإعجاز البياني:

لقد تحدى الله تعالى الإنس والجن في مراحل بالقرآن الكريم: لقد كان منهج القرآن الكريم في تقرير عجز الإنس والجن بأن تحداهم على ثلاث مراحل:
(التحدي بالقرآن الكريم كله ، التحدي بعشر سور ، التحدي بسورة واحدة)
الإعجاز العلمي في القرآن :
الإعجاز العلمي هو إخبار القرآن الكريم بحقيقةٍ علمية مشهودةٍ, ثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم.
وردت في معرض دعوة القرآن الكريم إلى الإيمان بعض الإشارات العلمية التي بدأت تتكشف للناس نتيجة للتقدم العلمي الحديث، وقد أظهرت الاكتشافات العلمية المعاصرة دقة هذه الإشارات مع أن العلوم كانت متخلفة عما نحن عليه في الوقت الحاضر، والنبي محمد أمي لا يقرأ ولا يكتب فضلا عن عدم معرفته بمثل هذه الاكتشافات، وهذا ما زاد المؤمنين إيمانا بأن هذه القرآن من عند الله، ولم تتعارض حقائق العلم المكتشفة مع آيات القرآن الكريم، لأن كلام الله، وصنعه لا يتصادمان أبدا بل يصدق أحدهما الآخر لأن مصدرهما واحد.
القصص القرآني
تُعرف القصة لغةً على أنّها عملية تتبع الآثر، فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم حيث قال الله سبحانه وتعالى في سورة الكهف (فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) [الكهف: 64]، أما اصطلاحاً فتعني الخبر الذي يتكون من مجموعة من الأحداث المترابطة التي تتخللها قصة .
استخدم القرآن الكريم النبأ والخبر كنايةً عن الزمن الماضي، لكن استخدم الخبر ومشتقاته في حال الحديث عن الأحداث القريبة، في حين استخدم النبأ عند الحديث عن الأحداث التي حدثت منذ زمن بعيد، ونستدل على ذلك من قوله تعالى: (نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ) [الكهف: 13]، ويجدر بالذكر أن القرآن الكريم يستخدم الخبر في بعض الأحيان للأخبار عن أحداث ستحدث في المستقبل، ومثال ذلك قوله تعالى: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) [القمر: 45].
مميزات وخصائص القصص القرآني:
يعد القصص القرآني واقعاً لمشاهد حقيقة، حيث لا مجال للخيال فيه، كما لا يوجد روابط وعلاقة له بالحكايات والأساطير التي يحيكها المؤلفون، والتي عادةً تكون من نسج الخيال.
يعد مصدر القصص القرآني من الله سبحانه وتعالى، إذ جاء مناسباً لما يحتاج الناس إليه من عبر وتعاليم، كما جاء مخاطباً لمكنون أنفسهم وعقولهم.

لا يعتبر تأريخاً للبشرية والناس طبقاً لمنهج المؤلفين والمؤرخين بالرغم من أنّه جاء مستنبطاً من الواقع وتألف من الحقائق؛ حيث إنّه لم يهتم بتحليل الأحداث أو الأماكن، إنّما تناول من التاريخ ما ينفع الدعوة الإسلامية ويفيدها.

يهدف التكوين القصصي للقصص القرآني لخدمة القضية الرئيسية والأولى، ألا وهي الدعوة لتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له.

لا يولى القرآن الكريم عنايةً واهتماماً لكل من عنصر المكان والزمان، إذ لا يذكرهما إلا في حال كانا يخدمان القضية الأساسية.

لعبت المشاهد التي قام القصص القرآني بذكرها والاستعانة بها دوراً كبيراً في تحقيق الهدف المنشود الذي تم ذكرها من أجله.

يعد الهدف من تكرار القصة الواحدة أكثر من مرة في عدة مواقع هو التأكيد والتوضيح.

يعد الأسلوب القرآني أسلوباً شيقاً وراقٍ، إذ لا يؤثر في العبرة أو المعنى المستهدف من ذكر القصة التي يتحدث عنها القرآن.

أهداف ومقاصد القصص القرآني

- تثبيت الدين والعقيدة السليمة، وتنقية النفس البشرية وتطهيرها من الخرافات، إضافة لارساء إيمان الإنسان بالله تعالى وكتبه وملائكته ورسله والقدر شره وخيره واليوم الآخر.
- مواساة الرسول عليه الصلاة والسلام بالاعتبار وتثبيت المؤمنين والاهتداء بالصالحين السابقين في الإصرار والعزيمة على الدعوة إلى دين لله سبحانه وتعالى دون كلل أو ملل أو خوف من كافر أو فاسق أو جائر.
- التأييد للرسول عليه الصلاة والسلام، فهو بالرغم من أنّه كان أمياً إلا أنّه كان دوماً يخبر بالأحداث التي حدثت سابقاً والأحداث التي ستحدث مستقبلاً.
- غرس الأخلاق النبيلة والحميدة في نفوس الناس، وتربية نفس المسلم على الإيمان بالله، وتهيئته لتحمل مشاق ومتاعب الدعوة إلى الدين الإسلامي، إضافةً إلى الجهاد من أجل نشر منهجه ودينه.
- الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى، وعبادته وحده لا شريك له، ونشر التوحيد.
- قصص القرآن هي القصص التي أخبر بها الله في القرآن عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة ، وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد

والديار. وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق

طريقة عرض قصص القرآن:

للقرآن في طريقة عرض القصص صور متعددة:

- يسرد القصة من أولها إلى آخرها كما في سورة يوسف.
- يعرض جانبا من القصة في سورة والجانب الآخر في سورة أخرى.
- يعرض السورة مرة مبسوطة ومرة مقبوضة، ويراعي مكان العبرة ومقتضى المقام والغرض من القصة.

القصص المذكورة في القرآن : هي كثيرة وفي محاور متعددة:

من قصص الأنبياء و الرسل	من قصص الحكماء	من قصص النساء	من قصص الأقوام	من قصص الظالمين	من قصص الحيوانات
آدم نوح هود صالح إبراهيم إسماعيل لوط إسحاق يعقوب يوسف أيوب ذو الكفل شعيب يونس موسى هارون داود سليمان زكريا عيسى يحيى إلياس	لقمان الحكيم	هاجر سارة بلقيس حواء آسية بنت مزاحم امرأة نوح امرأة لوط زليخة مريم	قوم ثمود قوم عاد قوم تبع أصحاب الرس أصحاب السبت أصحاب الجنة أصحاب الأيكة أصحاب الأخدود أصحاب الكهف سد مأرب	فرعون هامان قارون نمرود جالوت قابيل السامري ابرهة الحبشي	أصحاب الفيل بقرة بني إسرائيل ناقة صالح نملة سليمان حوت يونس

المحكم والمتشابه:

إذا أحاط المفسر بالعلوم الخمسة عشر التي يحتاج إليها من يتصدى لتفسير القرآن الكريم، وإذا تحققت له صحة الاعتقاد وصحة المقصد التي اشترطها

المحكم والمتشابه في القرآن

المحكم والمتشابه بمعناهما اللغوي:

أ - المحكم:

قال صاحب القاموس: " احكمه اتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد كحكمه حكما وعن الامر رجعه فحكم منعه مما يريد كحكمه " (١).

وقال صاحب لسان العرب: " احكمت الشئ فاستحكم: صار محكما، واحتكم الامر واستحكم: وثق. ونقل عن الزهري ان حكمت تأتي بمعنى احكمت " (٢).

وبملاحظة هذين النصين اللغويين نحصل على النتائج الثلاث التالية في شأن هذه المادة لغة:

١ - إن (محكم) مشتق من احكم وحكم.

٢ - إن (حكم) تأتي بمعنى وثق وأتقن، فهي ذات معنى وجودي ايجابي.

٣ - إن (حكم) تأتي بمعنى المنع من تسرب الفساد، وهي ذات معنى عدمي سلبي.

وقد حاول بعض الباحثين في علوم القرآن ان يرجع مادة الاحكام بمشتقاتها

---

(١) القاموس - مادة (حكم).

(٢) لسان العرب - مادة (حكم).

المتعددة، كالحكم والحكمة وحكم واحكم وغيرها إلى معنى واحد يجمعها وهو المنع (١).

ولكن المتبادر من مادة (الاحكام) معنى وجودي ايجابي هو: الاتقان والوثوق، كما يشير إلى ذلك تصريح أهل اللغة في تفسير أصل المادة، والمنع من تسرب الفساد يمكن ان يكون من مستلزمات هذا المعنى الايجابي (الاتقان) الامر الذي صحح استعمال المادة فيه أيضا مجازا، من باب استعمال اللفظ الموضوع للملزوم في اللازم.

ب - المتشابه:

قال صاحب القاموس: الشبه (بالكسر والتحريك)... المثل جمعه: أشباه وشابهه وأشبهه: ماثله. وتشابها واشتبها: أشبه كل منهما الاخر حتى التبسا. وأمور مشتبهة ومشبهة كمعظمة: مشكلة. والشبهة (بالضم) الالتباس والمثل. وشبه عليه الامر تشبيها: لبس عليه. وفي القرآن المحكم والمتشابه (٢).

وقال صاحب لسان العرب: الشبه والشبه والشبيه: المثل، والجمع أشباه. وأشبه الشئ الشئ: ماثله. وأشبهت فلانا وشابهته واشتبه علي وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحبه. والمشتبهات من الأمور: المشكلات. والمتشابهات: المتماثلات والتشبيه: التمثيل. والشبهة: الالتباس. وأمور مشتبهة ومشبهة: مشكلة يشبه بعضها بعضا. وشبه عليه: خلط عليه الامر حتى اشتبه بغيره (٣).

---

(١) راجع بهذا الصدد الفخر الرازي، التفسير الكبير ٧: ١٧٩ والزرقاني، مناهل العرفان ٢: ١٦٦ ورشيد رضا، تفسير المنار ٣: ١٦٣.

(٢) القاموس: مادة (شبه).

(٣) لسان العرب - مادة شبه.

وبملاحظة هذين النصين نجد:
١ - أن شابهه وأشبهه بمعنى ماثله. وكذا تشابه واشتبه، ولكنهما يدلان على وجود الوصف في الطرفين، فهو من قبيل المفاعلة.
٢ - أن الشبه يأتي بمعنى المثل، فهو معنى وجودي ذو طابع موضوعي واقعي، ولكنه قد يطلق - في نفس الوقت - على ما يستلزمه أحيانا من (الالتباس) الذي هو من المعاني ذات الطابع الذاتي القائم في عالم النفس، بل قد تطلق المادة ويراد منها خصوص نوع من المماثلة المؤدية إلى الالتباس، كما قد يرمي إلى ذلك صاحب القاموس في قوله الانف: " وتشابها واشتبها أشبه كل منهما الاخر حتى التبسا ". وهذا النوع من الاستعمال نجده في كل مادة تطلق على معنى يقبل الشدة والضعف، حيث قد يكون أحد مصاديق المعنى مستلزما وجود شئ آخر.

القرآن محكم ومتشابه:

لقد جاء في التنزيل وصف جميع القرآن الكريم بأنه كتاب محكم: (الر كتاب احكمت آياته ثم فصلت...) (١). وقال بعضهم في قوله تعالى: (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) (٢) إن (حكيم) هنا بمعنى محكم (٣).

كما جاء في التنزيل أيضا وصف جميع القرآن بأنه كتاب متشابه: (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني...) (٤).

وفي مقابل هذا الاستعمال الشامل لهذين الوصفين يوجد استعمال آخر لهما في

---

(١) هود: ١.
(٢) يونس: ١.
(٣) لسان العرب: مادة (حكم) ١٣: ٥٣ ط. دار صادر - بيروت.
(٤) الزمر: ٢٣.

التنزيل يطلقهما بشكل يجعل الاحكام مختصا ببعض الآيات القرآنية، ويجعل التشابه مختصا ببعض آخر منها، كما جاء ذلك في قوله تعالى: (هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا اولو الألباب) (١).

ويكاد الباحثون في علوم القرآن يتفقون على تعيين معنى كل من الوصفين في استعمالهما الأول الشامل، حيث يجدون أن العلاقة التي صححت اطلاق وصف الاحكام على الآيات القرآنية كلها هي: ما في القرآن من احكام النظم وإتقانه، وما فيه من التماسك والانسجام في الأفكار والمفاهيم والأنظمة والقوانين.

كما يجدون أن العلاقة التي صححت إطلاق وصف (المتشابه) عليه هي: محض (التماثل والتشابه) بين بعضه وبعضه الاخر في الأسلوب والهدف، وسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (٢).

ولكنهم اختلفوا منذ البداية حين حاولوا ان يحددوا المعنى المراد من هذين الوصفين (المحكم والمتشابه) في الاستعمال الثاني الآية (السابعة من آل عمران)، الامر الذي أدى إلى ولادة علم من علوم القرآن سمي: بالمحكم والمتشابه.

ومن الواضح أن البحث حين يدور حول فهم المعنى القرآني المراد من كلمتي: المحكم والمتشابه في هذه الآية الكريمة لا يكون بحثا اصطلاحيا ولا شبيها بالمعنى الاصطلاحي - كما هو الحال في البحث عن المراد بالمكي والمدني - لأنه يحاول

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) النساء: ٨٢.

ان يحقق غاية موضوعية وهي معرفة ما أراده الله سبحانه من هاتين الكلمتين (١).
وقد تعددت الاتجاهات والاراء في معنى المحكم والمتشابه المراد من هذه الآية، نظرا لاستمرار البحث فيها منذ العصور الأولى للتفسير، ولأهميتها من ناحية مذهبية، حتى إن بعض الباحثين ذكر ستة عشر رأيا في حقيقة المحكم والمتشابه.
سوف نكتفي في بحثنا هذا بدراسة الاتجاهات الرئيسة المهمة منها.

مختارنا في المحكم والمتشابه:

وتفرض علينا طبيعة البحث أن نذكر الرأي الصواب في تحديد معنى هاتين الكلمتين، ليتضح - في ضوئه - مدى صحة بقية الاتجاهات وانسجامها مع المدلول اللغوي والمحتوى الفكري للآية الكريمة.
وبهذا الصدد يجدر بنا ان نستذكر تقسيما تعرضنا له في بحوثنا السابقة، وهو أن التفسير تارة: يكون للفظ، وذلك بتحديد مفهومه اللغوي العام الذي وضع له اللفظ، واخرى: يكون للمعنى، وذلك بتجسيد ذلك المعنى في صورة معينة ومصداق خاص.
وعلى أساس هذا التقسيم نتصور التشابه المقصود في الآية الكريمة ضمن نطاق التشابه في تجسيد صورة المعنى وتحديد مصداقه الواقعي الموضوعي، لا في نطاق التشابه في العلاقة بين اللفظ ومفهومه اللغوي (المعنى)، وسواء في هذا النفي التشابه الذي يكون بسبب الشك في أصل وجود العلاقة بين اللفظ والمفهوم اللغوي (المعنى)، كما إذا تردد اللفظ في استعماله بين معنيين أو أكثر قد وضع اللفظ لهما، أو التشابه الذي يكون بسبب الشك في طبيعة هذه العلاقة، كما إذا عرفنا بوجود العلاقة بين اللفظ وأكثر من معنى، ولكن تردد اللفظ بينهما للتردد في

---

(١) قارن بهذا ما ذكره الزرقاني في مناهل العرفان ٢: ١٦٦.

استعماله بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي.
وهذا التفسير للتشابه لا نتبناه على أساس عدم صلاحية كلمة التشابه بحدودها اللغوية لاستيعاب هذا اللون من التشابه اللغوي، وانما نقرر ذلك على أساس وجود قرينة خاصة في الآية الكريمة، تجعلها تأبى الانفتاح على هذا اللون من التشابه.
وهذه القرينة هي ما نستفيده من قوله تعالى: (... فيتبعون ما تشابه منه...) (١) فان مفهوم (الاتباع) المستفاد من هذه الفقرة لا ينطبق إلا في حالة ما إذا كان للفظ مفهوم لغوي يكون أخذه والعمل به اتباعا له، إذ ليس من اتباع الكلام - اي كلام - ان نأخذ بأحد معانيه المشتركة أو المرددة إذا لم يكن له ظهور فيها، وانما يكون هذا العمل من اتباع الهوى والرأي الشخصي في تعيين المعنى، لان الكلام لا يعينه.
وحين نلاحظ استعمال كلمة الاتباع في مجال آخر نجد هذا الاستنساخ أمرا واضحا، فنحن نعرف وجود نصوص كثيرة تأمرنا بضرورة اتباع القرآن الكريم والسنة النبوية والتمسك بهما، فهل نتوهم فيمن يأخذ بأحد المعاني المشتركة للفظ خاص ورد في الكتاب الكريم أو في السنة النبوية أنه متبع للكتاب والسنة؟ أو لا بد لانطباق هذا المفهوم في حقه من الاخذ بالمعنى الذي يكون للنص ظهور فيه؟
ولا شك بتعيين الشق الثاني.
اذن فالتشابه المقصود في الآية الكريمة نوع خاص، لا بد فيه ان يكون قابلا للاتباع، وهذه القابلية تنشأ من عامل وجود مفهوم لغوي معين للفظ يكون العمل به اتباعا له.
فالتشابه لم ينشأ من ناحية الاختلاط والتردد في معاني اللفظ ومفهومه

---

(١) آل عمران: ٧.

اللغوي، لأننا فرضنا ان يكون للفظ مفهوم لغوي معين، وانما ينشأ من ناحية أخرى وهي الاختلاط والتردد في تجسيد الصورة الواقعية لهذا المفهوم اللغوي المعين، وتحديد مصداقه في الذهن من ناحية خارجية.

فحين نأتي إلى قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) (١) نجد للفظ الاستواء مفهوما لغويا معينا اختص به، وهو الاستقامة والاعتدال مثلا، وليس هناك اي تشابه بينه وبين معنى آخر في علاقته باللفظ، فهو كلام قرآني قابل للاتباع ولكنه متشابه، لما يوجد فيه من التردد في تحديد صورة هذا الاستواء من ناحية واقعية، وتجسيد مصداقه الخارجي بالشكل الذي يتناسب مع الرحمن الخالق الذي ليس كمثله شئ.

وحين نفهم المتشابه بهذا اللون الخاص لا بد لنا ان نفهم المحكم على أساس هذا اللون الخاص أيضا، وهذا شئ تفرضه طبيعة جعل المحكم في الآية مقابلا للمتشابه، فليس المحكم ما يكون في دلالته اللغوية متعين المعنى والمفهوم فحسب، بل لا بد فيه من التعيين في تجسيد صورته الواقعية وتحديد مصداقه الخارجي، ففي قوله تعالى: (... ليس كمثله شئ...) (٢) نجد الصورة الواقعية لهذا المفهوم متعينة، فهو ليس كالانسان ولا السماء ولا كالأرض ولا كالجبال... إلى آخره من الأشياء.

(فالمحكم) من الآيات ما يدل على مفهوم معين، لا نجد صعوبة أو ترددا في تجسيد صورته أو تشخيصه في مصداق معين.

و (المتشابه) ما يدل على مفهوم معين تختلط علينا صورته الواقعية ومصداقه الخارجي.

---

(١) طه: ٥.

(٢) الشورى: ١١.

الاتجاهات الرئيسة في المحكم والمتشابه:
أ – اتجاه الفخر الرازي:
الاتجاه الأول: إن المحكم هو ما يسمى في عرف الأصوليين بالمبين، والمتشابه ما يسمى في عرفهم بالمجمل، وقد جاءت صياغة هذا الاتجاه بأساليب مختلفة، ولعل ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره الكبير هو أوضح صياغة وأوفاها بالمقصود، قال:
" اللفظ الذي جعل موضوعا لمعنى، فاما ان يكون محتملا لغير ذلك المعنى، واما ان لا يكون، فإذا كان اللفظ موضوعا لمعنى ولا يكون محتملا لغيره فهذا هو النص، وأما ان كان محتملا لغيره فلا يخلو: إما ان يكون احتماله لأحدهما راجحا على الاخر، وإما ان لا يكون كذلك، بل يكون احتماله لهما على السواء، فان كان احتماله لأحدهما راجحا على الاخر سمي ذلك اللفظ بالنسبة إلى الراجح (ظاهرا) وبالنسبة إلى المرجوح (مؤولا)، وأما ان كان احتماله لها على السوية كان اللفظ بالنسبة إليهما معا (مشتركا) وبالنسبة إلى كل واحد منهما على التعيين (مجملا) فقد خرج من التقسيم الذي ذكرناه ان اللفظ إما ان يكون (نصا) أو (ظاهرا) أو (مؤولا) أو (مشتركا) أو (مجملا).
أما (النص) و (الظاهر) فيشتركان في حصول الترجيح، إلا أن النص راجح مانع من الغير، والظاهر راجح غير مانع من الغير، فهذا القدر المشترك هو المسمى (بالمحكم)، وأما المجمل والمؤول فهما مشتركان في أن دلالة اللفظ عليه غير راجحة وان لم يكن راجحا لكنه غير مرجوح، والمؤول مع أنه غير راجح فهو مرجوح لا بحسب الدليل المنفرد (١)، فهذا القدر المشترك هو المسمى (بالمتشابه) لان عدم الفهم حاصل في القسمين جميعا.

---

(١) يقصد بالدليل المنفرد: الدليل والقرينة الخارجية المنفردة عن الكلام واللفظ.

وقد بينا أن ذلك يسمى متشابها، إما لان الذي لا يعلم يكون النفي فيه مشابها للاثبات في الذهن، وإما لأجل أن الذي يحصل فيه التشابه يصير غير معلوم، فأطلق لفظ المتشابه على ما لا يعلم إطلاقا لاسم السبب على المسبب " (١). ويمكن ان نلخص رأي الرازي بالشكل التالي:

اللفظ بحسب دلالته على المعنى ينقسم إلى أربعة أقسام:

أ - النص: وهو ما كانت دلالته على المعنى بالشكل الذي لا تفسح مجالا لاحتمال معنى آخر.

ب - الظاهر: وهو ما كانت دلالته على المعنى بشكل راجح مع احتمال معنى آخر.

ج - (المشترك) و (المجمل): وهو ما كان دالا على معنيين بشكل متساو.

د - المؤول: وهو ما كان دالا على المعنى بشكل مرجوح، فهو عكس الظاهر.

و (المحكم): ما كانت دلالته على المعنى من القسم الأول والثاني لوجود الترجيح فيهما.

و (المتشابه): ما كانت دلالته على المعنى من القسم الثالث والرابع لاشتراكهما في أن دلالة اللفظ فيهما غير راجحة، وانما سميا متشابها لعدم حصول فهم المعنى فيهما.

ويمكن أن نلاحظ على هذا الاتجاه بالملاحظتين التاليتين:

١ - إننا انتهينا من دراستنا الآية الكريمة إلى ضرورة الالتزام بأن المتشابه المقصود فيها هو: التشابه في تجسيد صورة المعنى، وتحديد مصداقه، لا التشابه في علاقة اللفظ بالمعنى بقرينة اخذ مفهوم الاتباع في المتشابه، وهو لا يتحقق في موارد الاجمال اللغوي.

---

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير ٧: ١٨٠.

٢ - وحين نساير الفخر الرازي، ونتصور التشابه بسبب علاقة اللفظ بالمعنى، لا نجد هناك ما يبرر حصر نطاق التشابه في هذه العلاقة فحسب، بل يمكننا أن نتصور سببا آخر للتشابه وهو: التشابه بسبب تجسيد صورة المعنى وتحديد مصداقه. والفخر الرازي بتقسيمه السابق يحاول أن يغلق علينا هذا الطريق، حيث لا يتصور التشابه إلا من زاوية علاقة اللفظ بالمعنى، مع أنه يمكن ان يتصور أيضا في علاقة المعنى بتشخيص مصاديقه الواقعية.

ب - اتجاه الراغب الأصفهاني:

الاتجاه الثاني الذي ذهب إليه الراغب الأصفهاني وهو: أن المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، سواء كان الاشكال من جهة اللفظ أو من جهة المعنى.

وقد ذكر الراغب تفاصيل طويلة في شرح هذا الاتجاه قال: " فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتهما. والمتشابه من جهة اللفظ ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة، وذلك إما من جهة غرابته، نحو الأب ويزفون، وإما من جهة مشاركة في اللفظ، كاليد والعين، والثاني يرجع إلى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب: ضرب لاختصار الكلام نحو: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء...) (١)، وضرب لبسط الكلام نحو: (... ليس كمثله شئ...) (٢) لأنه لو قيل ليس مثله شئ كان أظهر للسامع، وضرب لنظم الكلام نحو: (... أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما...) (٣) تقديره

---

(١) النساء: ٣.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) الكهف: ١ و ٢.

الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا، وقوله: (... ولولا رجال مؤمنون...) (١) إلى قوله: (... لو تزيلوا...). والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى وأوصاف يوم القيامة، فان تلك الصفات لا تتصور لنا إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه أو لم يكن من جنس ما نحسه. والمتشابه من جهة المعنى واللفظ جميعا خمسة أضرب، الأول: من جهة الكمية، كالعموم والخصوص نحو: (... فاقتلوا المشركين...) (٢) والثاني من جهة الكيفية، كالوجوب والندب نحو: (... فانكحوا ما طاب لكم...) والثالث من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو: (... اتقوا الله حق تقاته...) (٣)، والرابع من جهة المكان والأمور التي نزلت فيها نحو: (... وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها...) (٤) وقوله (انما النسئ زيادة في الكفر...) (٥) فان من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه معرفة تفسير هذه الآية، والخامس من جهة الشروط التي بها يصح الفعل أو يفسد، كشروط الصلاة والنكاح. وهذه الجملة إذا تصورت علم أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم (٦).

ويلاحظ على هذا الاتجاه بالملاحظة الأولى التي ذكرناها في مناقشة الاتجاه الأول، ولكنه يتفادى الملاحظة الثانية حيث ينفتح على تصور التشابه بسبب المعنى، بغض النظر عن اللفظ وعلاقته بالمعنى.

---

(١) الفتح: ٢٥.
(٢) التوبة: ٥.
(٣) آل عمران: ١٠٢.
(٤) البقرة: ١٨٩.
(٥) التوبة: ٣٧.
(٦) مفردات الراغب الأصفهاني: مادة شبه.

العلماء لصحة التفسير فإن ذلك لا يعني أن المفسر سوف يتمكن من تفسير كل آيات القرآن الكريم بدرجة واحدة من التفصيل والبيان، فقد لاحظ العلماء أن من آيات القرآن ما يتحدث عن أمور هي أوسع من مدركات العقل البشري، فيعجز العقل البشري عن توضيحها بأكثر مما يؤخذ من دلالة الألفاظ المعبرة عنها.

وبناء على تلك الحقيقة قسّم العلماء القرآن على ثلاثة أوجه :

أحدها: لا سبيل إلى الوصول إليه، وهو الذي استأثر الله بعلمه، وحجب علمه عن جميع خلقه، وهو أوقات ما كان من آجال الأمور الحادثة التي أخبر الله في كتابه أنها كائنة، مثل وقت قيام الساعة، ووقت نزول عيسى بن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، والنفخ في الصور، وما أشبه ذلك.

والوجه الثاني: ما خصّ الله بعلم تأويله نبيّه صلى الله عليه وسلم دون سائر أمته، وهو ما فيه مما بعباده إلى علم تأويله الحاجة، فلا سبيل إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم لهم تأويله.

والثالث منها: ما كان علمه عند أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وذلك تأويل عربيته، وإعرابه، لا يوصل إلى علم ذلك إلى من قبلهم.

ويستند هذا التقسيم إلى الرواية المنقولة عن عبد الله بن عباس التي ذكرناها عند الحديث عن جهوده في التفسير، كما أن جمهور العلماء والمفسرين يفسرون الآية السابعة في سورة آل عمران في ضوء ذلك، وهي قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ [آل عمران].

قال الطبري: المحكم من آي القرآن ما عرف العلماء تأويله، وفهموا معناه وتفسيره، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل، مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، والراسخون في العلم يقولون: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا لا يعلمون ذلك، ولكن فضل علمهم في ذلك على غيرهم: العلم بأن الله هو العالم بذلك دون سواه من خلقه .

وعلى هذا النحو فهم علماء السلف الآية الكريمة السابقة، فقال عبيدة بن عمرو السلماني (ت 72 هـ) وهو من تابعي أهل الكوفة، وأحد تلامذة عبد الله بن مسعود: من أين يعلمون تأويله؟ وإنما انتهى علم الراسخين إلى أن قالوا:

آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا. وسئل الإمام مالك بن أنس (ت 179 هـ) عن قوله تعالى: وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ أيعلم تأويله الراسخون في العلم؟ قال: لا،

وإنما معنى ذلك أن قال: وما يعلم تأويله إلا الله، ثم أخبر فقال: والراسخون في العلم يقولون: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وليس يعلمون تأويله

وقد ذهب الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم وجمهور العلماء من بعدهم إلى أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه ، ويدل على ذلك أمور منها:

1 - ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، عن عائشة، رضي الله عنها، قال: تلا

رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هذه الآية: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ ... وقال: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم».

2 - ما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره، والحاكم في مستدركه، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون في العلم آمنا به»، وهذه القراءة، وإن كانت شاذة لعدم تواترها، ومخالفتها خط المصحف، أقل درجاتها أنها تفسير صحيح عن ابن عباس تدل على أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله.

3 - ويؤيد ذلك أن الآية دلت على ذم متّبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة، وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله، وآمنوا بما أنزل الله: محكمه ومتشابهه، قائلين: كلّ من عند الله.

وبناء على رأي الجمهور في تفسير الآية تكون الواو في تفسير قوله: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ للاستئناف، ويكون ما بعدها جملة مستأنفة مكونة من مبتدأ وخبر، وتكون الواو على رأي غيرهم للعطف، وهو خلاف ما ذهب إليه جمهور أهل العلم. وينص علماء الوقف والابتداء على أن الوقف التام في الآية يكون عند لفظ (الله) المعظم من قوله: وَما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ثم يستأنف القارئ بعد ذلك قراءته بقوله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ.

إن القرآن الكريم قد كشف الستر عن حجب الغيب فأطلع البشرية على أخبار اليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار، وكشف عن بعض أسرار الكون وحقائقه بما يتناسب وقابلية البشر وإدراكهم، ورمز إلى أمور أخرى ليست من مدركات العقل البشري استأثر الله بعلمها وحجبها عنا في الحياة الدنيا، فالذين في قلوبهم زيغ وانحراف وضلال عن سواء الفطرة يتركون الأصول الواضحة التي تقوم عليها العقيدة والشريعة والمنهج العلمي للحياة الإسلامية، ويجرون وراء المتشابه الذي يعوّل فيه على الإيمان بصدق مصدره، والتسليم بأنه هو الذي يعلم الحق كله، بينما الإدراك البشري نسبي محدود المجال. وأما الراسخون في العلم الذين بلغ

من علمهم أن يعرفوا مجال العقل وطبيعة التفكير البشري وحدود المجال الذي يملك العمل فيه بوسائله الممنوحة لهم، فإنهم يقولون: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا

ولا يعني قول العلماء إن من القرآن ما استأثر الله بعلمه أنه ليس له معنى أو حقيقة يدل عليها، وإنما يعني أن الوقوف على حقيقة معناه ليس في طوق البشر «لعدم نظيره عندنا» ، ومن ثم كان السلف يقولون في مثل هذه الآيات: «قراءة الآية تفسيرها» أي أن القارئ يقف عند الدلالة الظاهرة لألفاظها، من غير تعمق في البحث عن تفصيلات ذلك المعنى.

وهاهنا ثمة ملاحظتان:

الأولى: ذهب بعض العلماء أن التشابه أمر نسبي، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره، ولكن هناك آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد، وهناك آيات متشابهات لا سبيل لأحد للقول في تفسيرها

الثانية: أن الله تعالى وصف القرآن بالإحكام في قوله: كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [هود]، وإحكامه هنا يعني إتقانه وعدم تطرق النقص والاختلاف إليه، كما أن الله تعالى وصفه بأنه متشابه في قوله: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ (23) [الزمر]، والمراد بتشابهه هنا كونه يشبه بعضه بعضا في الحق والصدق والإعجاز، والقرآن من هذه الناحية محكم متشابه جميعه. وهذا غير المعنى الذي تحدثنا عنه في هذه الفقرة.

الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم

النسخ : رفع حكم شرعي سابق، بدليل شرعي لاحق، وهو محل إجماع بين المسلمين من قَبل ظهورِ أبي مسلم الأصفهاني ومَن تابعه، مِن حيث جوازه عقلاً، ووقوعه شرعًا، فالله - سبحانه وتعالى - أقام شريعتَه على الحكمة البالغة، والمصالح المتجددة، ومِن حكمته أن يأذن ببعض الأحكام في بعض الأوقات؛ لملاءمتها لها، وتناسقها معها، على أن يجعل لها أمدًا محدودًا، ونهاية مقدَّرة، لتحل في محلها أحكامٌ مخالفة لأوقات متجددة، وتكون أكثر صلاحية، وأعظم نفعًا، حسب ما جرت به سنة الله في خلقه، من إرادة الخير، واليسر، والصالح العام، وصدق الله - تعالى - حيث يقول: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة: 220].

فالنسخ في واقعه ما هو إلا انتهاءٌ للحكم الأول على ميقات معلوم عند الله، وليس معلومًا لنا مِن قبل؛ ولكن الله أعلَمَنا به حين أعلمنا بالناسخ، والقرآن

الكريم يقرر ذلك في قوله - تعالى -: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [البقرة: 106].
فالمفهوم من هذه الآية الكريمة أن كل آية يذهب الله بها على مقتضى حكمته، إلى بدل عنها، أو إلى غير بدل - فإن ما يلحق من ذلك لا يقل عما ذهب أجرًا ونفعًا، فالبدل إما مماثل لما ذهب في الثواب، وإما متفوق عليه ثوابًا ومصلحة؛ ولذلك لم يقع النسخ - ولن يقع - إلا في فروع العبادات والمعاملات، أما غيرها من العقائد الثابتة، وأصول الأخلاق الخالدة، ومفاهيم القصص والأخبار الماضية، وأصول المعاملات، والأخبار بما وراء الحياة، مما هو ظهر الغيب مِن بعث ونشور، وحشر وحساب، وما إلى ذلك، وليس في شيء من هذا مجالٌ للنسخ؛ لأنها أمور تحكي حقائقَ، والحقائقُ لا تَقبَل التغيير ولا التبديل، ولا تختلف باختلاف الزمان والمكان والأقران؛ وفي ذلك يقول الله - تعالى -: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) [الشورى: 13].
ولنضرب بعض الأمثلة على الناسخ والمنسوخ، على رأي جمهور العلماء، مما جاء في الكتاب العزيز:
1.يقول الله - تعالى -: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) [البقرة: 217]، فالآية تفيد حرمة القتال للمشركين في الأشهر الحرم الأربعة؛ وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وقد روى ابن جرير عن عطاء بن ميسرة: أنها منسوخة بقوله - تعالى -: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) [التوبة: 36]، ونقل أبو جعفر النحاس إجماعَ العلماء على ذلك، ما عدا عطاء، وبيان ذلك أن الآية الثانية قد أفادت عموم قتال المشركين، المستلزم لعموم الأزمان، ومما يدعم هذه الإفادةَ ما جاءت به كتبُ السيرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلَّم - قاتَلَ هوازنَ بحُنَيْن، وثقيفًا بالطائف في شوال وذي القعدة سنة ثمانٍ من الهجرة، وذو القعدة أحدُ الأشهر الحرم، وما جاء كذلك في سبب نزول هذه الآية، كما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، والطبراني في "الكبير"، والبيهقي في "سننه"، عن جندب بن عبدالله: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلَّم - بعث رهطًا، وبعث عليهم عبدالله بن جحش، فلقُوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم الذي قتلوه فيه، هو من جمادى أو من رجب، فعيَّرهم المشركون، وقالوا للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام، فأنزل الله: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) [البقرة: 217] الآية، فلما نزلت فَهِم بعض المسلمين أنها لرفع الوزر، لا لثبوت الأجر.

فنزل بعد ذلك قوله - تعالى - عقيب تلك الآية: (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [البقرة: 218]، وأخرجه ابن منده في "الصحابة"، عن طريق عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن ابن عباس، وإذا تتبعنا مكان الآية الثانية وجدناها متممة لآية الأشهر الحرم، هكذا: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [التوبة: 36]، فتكون حرمة الأشهر الحرم لا تزال باقية، هي في الامتناع عن المعاصي عمومًا؛ لأنها فيها أشد وزرًا، وأعظم نُكرًا منها في غيرها، وقتال المشركين ليس من قبيل المعاصي، وقيل: إن النسخ وقع بقوله - تعالى -: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) [التوبة: 5]، وأيًّا ما كان القول، فقد وقع النسخ، وانتهى حكم سابق، اقتضت الحكمة بقاءه فترة من الزمان، ثم اقتضت تلك الحكمة إنهاءَ الحكم المؤقت، وإعلان حكم جديد لعهد جديد.

2.يقول الله - تعالى -: (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا) [النساء: 15، 16]، فإنها منسوخة بآية النور، وهي: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) [النور: 2]، وذلك بالنسبة إلى البكر، رجلاً كان أو امرأة، أما الثيب من الجنسين، فقد نُسخ الحكم الأول بالنسبة إليهما، وأبدل به الرجم، الذي دل عليه رجم ماعز والغامدية في حياة الرسول - صلَّى الله عليه وسَلَّم - كما دلت عليه آية نُسخت تلاوةً لا حكمًا، وهي: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم"، ومعنى الآية الأولى والثانية - كما جاء في "تفسير الجلالين" (النساء آية 15 ، 16) -: أن مَن يأتي فاحشةَ الزنا مِن النساء، وشهد بذلك أربعة من رجال المسلمين، فاحبسوهن في البيوت حتى الموت، أو إلى أن يجعل الله لهن طريقًا إلى الخروج.

وكان ذلك في أول الإسلام، ثم جعل الله لهن هذا الطريقَ، حين قال رسول الله - صلَّى الله عليه وسَلَّم - كما في رواية مسلم: ((خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً))، وبيَّن ذلك السبيلَ بأنه جلد البكر مائة، وتغريبها عامًا، ورجم المحصنة والمحصن، ولما بيَّن حكم النساء، تعرَّض لحكم

الرجال الذين يرتكبون نفس الخطيئة، سواء كانت زنًا أو لواطًا، بأنهم يَلحقهم الأذى بالسبِّ والضرب بالنعال، حتى يتوبا، ويصلحا العمل، فلا يلحقهما الأذى بعد ذلك، وكان ذلك في مطلع الدعوة الإسلامية، أخذًا بسياسة التدرُّج في التشريع، والانتقال بالناس إلى طريق الشريعة المحكمة رويدًا رويدًا، ودرجة درجة، حتى يسلس قِيادُهم، وتَلِين قناتُهم، فكان للحكم الأول المقرر في آيتي النساء فرصةٌ زمنية محددة في عِلم الله قبل أن تتحدد في علمنا، ثم تحددت في علمنا بعد أن أطلعَنا اللهُ عليها بالناسخ الحديث في إثر المنسوخ القديم، وهو أمر تنظيمي حكيم، لا يتنافى مع قدرة الله العليم: (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) [الرعد: 39].

3 يقول الله - تعالى -: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) [الأنفال: 65]، فإنها منسوخة بقوله - تعالى -: (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال: 66]، ووجه النسخ أن الآية الأولى خبرٌ بمعنى الأمر؛ أي ليقاتِلِ العشرون منكم المائتين منهم، والمائة بالألف، وعلى الواحد أن يَثْبُت أمام العشرة ولا يَفِرَّ، فإن فرَّ فهو ممن تولَّى يوم الزحف مرتكبًا كبيرة من الكبائر، ومعرِّضًا نفسه لسخط الله ومقته، فلما كثر المسلمون خفَّف الله عنهم، وشرع لهم هذا الحكمَ الميسر، الذي لا يشق كثيرًا على نفوس المجاهدين، ولا يحملهم على ركوب الأهوال في القتال، فأفادت الآية الثانية وجوبَ ثبات الواحد للاثنين، فإن فر أمامهما دخل تحت الوعيد الشديد، وإن فر أمام أكثر منهما فهو معذور، لا جناح عليه، ولا تقصير منه، وإن كان يؤذَن له في الثبات لأي عدد كان، ويكون آخذًا بالعزيمة بدلاً من الرخصة التي شرعها الله له؛ لطفًا به، وتخفيفًا عنه، والله مع الصابرين بعونه وتأييده، ونصره وتوفيقه، أخرج إسحاق بن راهويه في "مسنده"، عن ابن العباس في سبب نزول الآية، قال: لما افترض الله عليهم أن يقاتِلَ الواحدُ عشرةً، ثقُل ذلك عليهم وشقَّ، فوضع الله ذلك عنهم إلى أن يقاتل الواحدُ الرجلين، وأنزل قوله - تعالى -: (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ) [الأنفال: 65].

وهكذا نرى أن النسخ ليس إبطالاً للأحكام الشرعية؛ ولكنه توقيت لبعضها ببعضها الآخر؛ حتى تظهر حكمة الله في شرعه، ورحمته بعباده، وأنه - سبحانه وتعالى - قبل هذا كله فعَّال لما يريد، لا يُسْأل عما يفعل، وأفعاله - سبحانه وتعالى - هي عين الحكمة، وهي جوهر الإصلاح، وقد تسعفنا عقولُنا وأفكارنا بإدراك جوانبَ منها، وقد تعلو حكمتها فوق آفاق عِلمنا،

وعلينا في كل حال أن نُقر أولاً بالعجز بين يديه، وأن نثبت له القدرة بلا نهاية، والعلم بدون حدود، إن الله على كل شيءٍ قدير.

4.يقول الله - تعالى -: (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) [البقرة: 284]، فإنها منسوخة بقوله - عز من قائل -: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا) [البقرة: 286]، وبيان ذلك أن الله - سبحانه وتعالى - قد تجاوز لهذه الأمة عمَّا حدَّثت بها نفسَها، ما لم تقل أو تفعل، كما جاء في الحديث الشريف الصحيح.

أي إن كل ما يعتلج في خاطر المرء من شر، وما تهجس به نفسُه من معانٍ وصور وأخيلة، وأحاديث النفس، وأحلام يقظة - كلٌّ داخل في دائرة العفوٍ الإلهي، ما لم يصل إلى درجة العزم المصمم، فإنه يُكتَب على صاحبه سيئةً واحدة، وهذا من فضل الله - تعالى - على عباده، ورحمته الواسعة بهم، وتسامحه فيما هو من طبائع النفس البشرية، التي لا حيلة للإنسان في دفعها، أو الخلاص منها إلا بمنتهى العسر، ولعل ما قرره علماء النفس حديثًا يلقي أضواء على العقل الباطن، وفكرة اللاشعور، فإن الشعور عندهم واللاشعور يشكلان العقل في الإنسان، والثاني يختزن المعلومات التي تَرِدُ إليه عن طريق الحس، ثم هي تحاول دائمًا الظهور في بؤرة الإدراك، ولكن حالة الشعور والوعي تمنعها، فإذا تراخى الشعور نتيجة هدوء وانسجام، أو راحة أو غفلة، أو نحو ذلك - ظهرت أفكار اللاشعور في البؤرة، وصاحَبَها غالبًا أحلامٌ لليقظة، يحدِّث فيها الإنسان بأحاديثَ قد تغلب عليها نزعة الشر أو اللذة، وقد تفضَّل الله - سبحانه وتعالى - فعفا عن تلك الأحاديث والهواجس أخيرًا، بعد أن كان يؤاخذ الله بها العبادَ حين نزلت الآية الأولى، وفي كتاب "لباب النقول في أسباب النزول": "لما نزلت آية البقرة: (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) [البقرة: 284]، شكا المؤمنون من الوسوسة، وشقَّ عليهم المحاسبةُ بها، فنزل قوله - تعالى -: {لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: 286]؛ أي تسعه قدرتها، (لَهَا مَا كَسَبَتْ) [البقرة: 286]؛ من الخير، (وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) [البقرة: 286]؛ أي وزر الشر، ولا يؤاخَذ أحد بذنب أحد، ولا بما لا يكتسبه مما وسوست به نفسه".

وأما ما نُقل عن السدي في تعريف الصغيرة: "هي الخطرة من الذنوب"؛ فقد عقب عليه الزمخشري بقوله: وكأنه يعني أن حسناتِ الأبرار سيئاتُ المقربين؛ إذ إن خطرات الذنوب في القلوب جزء من أحاديث النفس، وهي عفو لهذه الأمة، ولا مؤاخذة فيها، ما لم تقترن بقول أو عمل، وهذا هو رأي الجمهور في الآيتين.

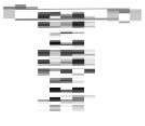

أما القول بأن الأولى محكَمة، وأنها خاصة بكتمان الشهادة وإظهارها – فمردودٌ؛ بأنه لا دليل على هذا التخصيص، وقول بعضهم أنها محكمة، وباقية على عمومها، وأن المعنى: أن الله يحاسب المؤمنين والكافرين، فيغفر للأولين دون الآخرين - مردودٌ أيضًا؛ بأن (نفسًا) في قوله - تعالى -: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة: 286] نكرةٌ في سياق النفي، فتفيد العموم للمؤمن والكافر على السواء، ولا دليل على الخصوص.

ومما جاء ناسخًا ومنسوخًا قول الله - تعالى -: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) [آل عمران: 102]، قال السيوطي: ليس في آل عمران آيةٌ يصح فيها دعوى النسخ، إلا هذه الآية، فإنها منسوخة بقوله - تعالى -: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) [التغابن: 16]، وبيان ذلك: أن الآية الأولى بظاهرها قد أمرتْ بأن يُتَّقى الله حقَّ التقوى، وتركَتِ البابَ مفتوحًا أمام فهم هذه الآية والعمل بها؛ حتى يشحذ كلُّ مؤمن همَّته لبلوغ أقصى ما يمكن بلوغُه من أعمال التقوى، وهي غير محددة تحديدًا يسهل حصره والإحاطة به، وإدراك أبعاده وأعماقه بيسر ووضوح، وحتى الآثار الواردة في تفسير هذه الآية يبدو عليها العموم والشمول، ولا يتيسر فيها التحديد والإلمام، فقد قيل في تفسيرها: ((أن يُطاع فلا يُعصى، ويُشكَر فلا يُكفر، ويُذكَر فلا يُنسى))، فقالوا: "يا رسول الله، ومَن يقوى على ذلك؟"، فنُسخ بقوله - تعالى -: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) [التغابن: 16]، وقد ورد في تفسيرها كذلك: أن يحفظ الإنسان رأسَه وما وعى، وبطنَه وما حوى، ويَذكُرَ الموت والبلى، وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جُبير، قال: لما نزلت آية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) اشتدَّ على القوم العملُ، فقاموا حتى ورمتْ عراقيبُهم، وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفًا على المسلمين: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ).

وها هو ذا الرسولُ - صلَّى الله عليه وسلَّم - يضرب للناس مثلاً في أصول التدين المتوازن، بقوله وفعله، فيقول: ((لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمَن رغب عن سنتي فليس مني))؛ رواه الشيخان.

غريب القرآن :

غريب القرآن علم من علوم القرآن وهو أيضا جزء من علم التفسير من حيث أن معرفته - معرفة غريب القرآن- ضروري للمفسر، ويشار إلى هذا العلم، أي مجموعة من المعارف والمعلومات، في المصنفات التي تتناول علوم القرآن بـ "معرفة غريبه"

معرفة غريب القرآن هو مَعْرِفَةُ الْمَدْلُولِ، وهذا العلم صنف فيه جماعة ويرى صاحب البرهان أن أحسن كتاب ألف في هذه المعرفة كتاب

المفردات للراغب فإنه يَتَصَيَّدُ الْمَعَانِيَ مِنَ السِّيَاقِ لِأَنَّ مَدْلُولَاتِ الْأَلْفَاظِ خَاصَّة. هذا ويوضح مساعد بن سليمان الطيار معنى الغريب: ليس المُراد بالغريب ما كان غامضَ المعنى دون غيره، وإنما المرادُ به: تفسيرُ مفرداتِ القرآنِ عموماً (ويخرج من هذا ما لا يُجهل معناه؛ كالأرض والسماء والماء وغيرها، فإنها مما لا يحتاج إلى بيانٍ)، فكُتبُ غريبِ القرآن تُعنى بدلالةِ ألفاظِه ، دونَ غيرِها من المباحثِ المتعَلقةِ بالتفسيرِ أو المعاني .

وهو جزءٌ من علم معاني القرآنِ ؛ لأن علمَ معاني القرآنِ يقومُ على بيانِ المفرداتِ أوَّلا ، ثمَ يُبيِّنُ المعنى المرادَ بالآيةِ ، مع الاعتناءِ بأسلوبِ العربِ الذي نزلَ به القرآنُ

أمثلة من الغريب

أبسل؛ ورد في قوله تعالى: (أُولئك الذين أُبْسِلوا بما كسبوا)؛ قال الحسن: أُبْسِلوا أسلِموا بجَرائرهم، وقيلِ أي ارْتُهِنوا، وقيل أهلِكوا، وقال مجاهد فُضِحوا، وقال قتادة حُبِسوا. وأن تُبْسَل نفس بما كسَبَت؛ أي تُسْلَم للهلاك؛ قال أبو منصور أي لئلاَ تُسْلم نفس إلى العذاب بعَملها، قوله تعالى (أن تُبسل نفس بما كسَبت): أي تُحْبَس في جهنم. أبو الهيثم: يقال أبْسَلْته بجَرِيرته أي أسْلمته بها، قال: ويقال جَزَيْته بها: ابن سيده: أبْسَله لكذا رَهِقه وعَرَّضه

ران؛ الرين: صدأ يعلو الشيء الجليل، (بل ران على قلوبهم) أي صار ذلك كصدأ على جلاء قلوبهم، فعمي عليهم معرفة الخير من الشر. وقال الشاعر "إذا ران النعاس بهم" وقد رين على قلبه

حصب؛ (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم)، الحصب، ما يحصب به في النار، أي يلقى فيها، وحصبته بحجر، أي رميته به، وأصله من الحصباء، وهي الحصى.وحصب النار بالحصب: أضرمها.

كتب عن غريب القرآن

ومن الكتب القديمة : المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني

من الكتب المبسطة الحديثة : كلمات القرآن، للشيخ حسنين محمد مخلوف

المصادر والمراجع :

١) الاتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) .

٢) علوم القرآن ، محمد باقر الحكيم (رحمة الله).

٣) الوافي في تاريخ القرآن وعلومه، أ.د عامر عمران الخفاجي .

٤) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي (٧٩٤هـ) .